

الاتجاهات الحديثة في دراسة التاريخ

للدكتور جواد علي
سكرتير المجمع العلمي العراقي
(بقية المنشور في العدد الماضي)

أصحاب نظرية النشوء والارتقاء ، ففرق بين الشعوب « البدعة »
وهي الشعوب المتبكرة على رايه ، وبين الشعوب المتمدنة والتي لم
تعمل في نظاره غير ذلك . وبني تاريخه على أساس عنصري فوجد
الآرية والشعوب الآرية وغنى بتفوق الأمم الأوربية على سائر
أمم العالم .

ومن أصحاب هذه النظرية « فولتمن » « woltmann »
وهو طبيب ومؤرخ وعالم من علماء علم الاجتماع . طبق نظرية
« داروين » على التاريخ وعلم الاجتماع وخرج بتأثير هذه
النظرية على أن الشعوب غير متساوية في الكفايات وأن الشعوب
التيما هي الشعوب المنتجة والمتبكرة في هذا العالم . وكذلك
« نوفيزو » « novicon » و « Hartwig » وقد حاول هؤلاء
مندفعين بالنظرية الداروينية وبما شاهدوه من تقدم عظيم في أوروبا
وتأخر في الشرق إلى تطبيق هذه النظرية على التاريخ وفي
السياسة .

وقد بحث في هذا الموضوع وبصورة أوضح وأعمق جماعة
من أصحاب المذهب « الواحدى » « moniamus » الغائل بأن
أصل كل الأشياء واحد وهو « المادة » أو « الروح » ، ومن
هؤلاء « أوستوالد » « Ostwald » « ١٨٥٣ - ١٩٣٢ م »
وهو أستاذ من أساتذة الكيمياء حاول تطبيق مبدأ « الطاقة »
حتى على العلوم الاجتماعية ، فألف في الثقافة وفي علم الاجتماع ؛
والعالم « كولد شايد » « goldscheid » صاحب نظرية
« الاقتصادية البشرية » وقد بحث في « المادة » على أنها طاقة
من الطاقات التي يتأثر بها التطور البشرى .

إن أصحاب هذه النظرية وإن كانوا قد تأثروا بنظرية
« داروين » وبآراء المادية إلى حد كبير ؛ غير أنهم لم يفكروا
عموماً وجود « الروح » . وقد فسروا « الروح » تفسيراً يلائم
النظريات الطبيعية ، كما أنهم فسروا تأثير القوة الموجدة أو « الله »
تفسيراً لا يدعو إلى مذهب الإلحاد أو نكران الخالق نكراناً
بأنه « Atheismus » .

والمذهب الآخر من المذاهب المادية في تفسير التاريخ هو
مذهب « المادية الاقتصادية » أو « الوجهة المادية في تفسير
التاريخ » فكل العوامل المادية المؤثرة في التاريخ البشرى هي

أما مذهب « المادية البيولوجية » فقد دعا أصحابه إلى تطبيق
القوانين البيولوجية مثل نظرية داروين وما يتعلق بها على التاريخ
وعلى المجتمعات البشرية باعتبار أنها نوع من الكائنات الحية
وأنها خاضعة للقوانين العامة التي تخضع لها كل الوجودات .
فبحثوا في التاريخ البشرى على أنه وجه من أوجه النشوء
والارتقاء وبقاء ما هو أصلح وبحثوا عن الوراثة عند الأمم ، كما
فعل « فريدريك فون هلولد » « Friedrich von Hellwald »
في بحثه عن التاريخ الثقافي وتطوره من أقدم عصوره حتى الآن .
و « دورنك » « E. Dörning » « ١٨٣٣ - ١٩٢١ م »
وهو من الفلاسفة الذين لا قوا معارضة قوية بسبب آرائهم المنيدة
في المادة ونكران الروح .

فعمد هذا الفيلسوف « الإيجابي » أن « الشيء الحقيقي » هو
الأشياء المادية فقط ، وعلى ما تظهر للإنسان ، وأن الأشياء كلها
واحدة ، وأنها هي الواقع أو الحقيقة ، وما عدا ذلك فسخافات .
وإن ما يسمى بالروح ليس إلا أسطورة ، وأن « الحس » أو « الشعور »
طاقة من طاقات المادة ، ولا توجد ما فوق « المادة » أى أمور
أخرى ؛ وأن الطبيعة نفسها تشمر وتفكر بالشكل الذي عناء من
المادة ، ولهذا يجب دراسة التاريخ على هذا الأساس . فرفض
بهذه النظرية المذاهب المعروفة القائلة بما وراء الطبيعة والمذهب
الرومانطيق كذلك .

ومن هؤلاء أيضاً « أونوسيك » « Otto seeck » في كتابه
عن تدهور العالم القديم و « كومبلوثير » « gumplowieny »
في مؤلفاته عن الاجتماع . و « هوستن سنيوارت شامبرلين »
« H. St. Chamberlain » في كتابه المشهور عن أساس
القرن التاسع عشر وقد بحث هذا في التاريخ متأثراً برأى

« Emil Littré » و « هنرى تين » « Henr Taïne » وغيرهم .
 لقد وجه هؤلاء أنظار قرائهم إلى دراسة العلوم الاجتماعية وحالات
 الشعوب والتاريخ الثقافي وما إلى ذلك وساعدوا على نشر آرائه
 ولا سيما « بسكل » « Buckle » في كتابه القيم الذى ظهر بين
 سنة ١٨٥٧ - ١٨٦١ وهو « تاريخ المدنية في انكلترا » .

وقد أشار إلى ضرورة دراسة نفسيات الجماعات والعوامل
 الروحية التى تؤثر فى التطور الثقافى ، ولابد لمعرفة ذلك من الاستعانة
 بالإحصائيات التى تتعلق بالجماعات . وبواسطة هذه الدراسات التى
 تستند على الطرق التجريبية نتمكن من رفع « التاريخ » إلى
 درجة « علم » من العلوم . أما الاستعانة بالحوادث الفردية
 وبالوقائع المدونة فإن ذلك لا يرفع من التاريخ شيئاً ، ولا يمكن
 أن يصل به إلى منزلة العلوم .

وقد تطرق إلى هذا البحث بحث الاستعانة بالإحصائيات
 لتكوين « علم التاريخ الناطق » عالم فرنسى هو « هنرى
 بوردو » « Henri Bourdeau » فى كتابه الذى ظهر سنة ١٨٨٨
 وعنوانه التاريخ والمؤرخون *l'histoire et les historiens*
 حيث نادى بوجود تدوين التاريخ على صورة أرقام وإحصائيات
 ناطقة تتكلم للناس بصراحة وبدون خجل ، مثل المعادلات
 الرياضية أو الكيمياء . أما وصف الحوادث وتدوينها على رايه ،
 فذلك من وظائف الآداب .

ومن الذين نحوا منحنى « كوت » فى ألمانيا المؤرخ الألمانى
 « كارل لامبرشت » « Karl Lamprecht » الذى سار على
 أكثر الأسس التى وضعها ذلك الفيلسوف الفرنسى وطبقها فى
 التاريخ الاجتماعى . وقد أشاد بالقيم التاريخية للجماعات وبأنها
 هى الموجهة للتاريخ متجاهلاً بذلك « عامل الفرد » فى التاريخ
 وتأثير الأفراد فى الجماعات . وقد أدى ذلك إلى احتدام النزاع
 بين المؤرخين فى موضوع مهم جداً : هل التاريخ من صنع
 الأفراد أم من صنع الجماعات ؟ وأيهما أقوى أثراً فى سير الحوادث
 البشرية ؟ فكان من تأخير ذلك ظهور رسالة طريقة فى موضوع
 « أهمية الشخصية فى التاريخ بالنظر إلى مقدمة بلوشى فى تاريخ
 اليونان » .

وقد اصطدم « لامبرشت » بأكثر المؤرخين من أتباع

ذات طابع اقتصادى ، وهذه العوامل الاقتصادية تؤثر فى حياة
 الأفراد والجماعات والحكومات . وحتى فى العلوم والأديان .
 وما الحياة الإنسانية والمظاهر الثقافية على رأى هؤلاء سوى
 مظهر من مظاهر التقلبات الاقتصادية ، فالتاريخ إذن هو تاريخ
 اقتصادى ، والعامل الاقتصادى إذن هو العامل الفعّال فى تغيير
 مجرى التاريخ وتكوين التاريخ .

ويلتقى بهذا المذهب التاريخى مذهب آخر يقال له « المذهب
 الإبتائى فى التاريخ » وهو قريب من المذهب المادى وإن ظهر
 لنا أن المبادئ مختلفة تمام الاختلاف . ومن رجال هذا المذهب
 الفيلسوف الفرنسى « أوكت كوت » « Auguste Comte »
 يرى أكثر رجال هذا المذهب أن التاريخ البشرى مر ق
 بمراحل حتى بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، وإن من الممكن تمييز
 ثلاث مراحل مهمة مرت بها هذه البشرية وهى :

١ - مرحلة إرجاع كل الأشياء إلى أسباب وعوامل روحية
 وقوى غير منظورة مثل السحر والقوى الخارقة والآلهة والقوى
 التى لا يمكن رؤيتها .
 ٢ - مرحلة ما وراء الطبيعة « metaphysic » أو مرحلة
 الأفكار المجردة ، وترجع فيها الأسباب والمسببات والوجود وما
 يحدث إلى عامل مؤثر .

٣ - المرحلة الثالثة وهى مرحلة « الفكر الإيجابى » وفى
 هذه المرحلة بدأ الإنسان يفكر فى ترك البحث فى الملل النهائية
 غير المنظورة إلى البحث بالطرق الإيجابية وفق الطرق الطبيعية
 وقوانين التجارب العلمية .

وقد تطورت أكثر العلوم وسارت سيراً إيجابياً إلا العلوم
 التى تبحث عن المجتمع والمجتمعات البشرية فإنها لا تزال فى حاجة
 إلى إيجاد قوانين ودساتير كالديناميكية الطبيعية يتمكن بواسطتها
 عالم الاجتماع أو التاريخ من الحصول فى النهاية على نتائج إيجابية
 ثابتة .

وقد وجدت آراء « كوت » رواجاً كبيراً بين الجماهير .
 وإن لم يكن ذلك التأثير تأثيراً مباشراً بل كان بواسطة كتابات
 الكتاب الآخرين أمثال « جون ستيوارت دميل » و « وهيربرت
 سبنسر » و « هنرى توماسى بىكل » و « إميل ليثريه »